الوظيفة السياقية لضمير الفصل

محمد عبد ذياب الهيتي

كلية الآداب والعلوم

بني وليد- ليبيا

الفصل في الاصطلاح النحوي:

ضـــمير الفصـــل في اصطلاح النحويين هو أحد ضمائر الرفع المنفصلة نحـــو: (هو) و(أنا) و(نحن) وغيرها الواقعة بين المبتدأ والخبر أو ما أصله كذلك نحو: (كان) و(إنّ) و(ظنّ) وما جرى مجرى هذه النواسخ.

إنـــنا واجـــدون هـــذه القضية قبل سيبويه (ت١٨٠هـــ) على الرغم من أن كتابه هـــو أول المدونـــات النحوية وأرقاها، وكل ما جاء بعده كَلٌّ عليه إلا في ناحية التنظيم والتـــبويب والمـــنهجية وما إليها، وأن معرفة هذه القضية تتم من خلال استنباط الآراء النحوية في القراءات القرآنية؛ لأنها الطريق الأدنى إلى القصد والأقرب إلى الصحة.

لقـــد نقـــل الحضرمي (ت ١١٧هـــ) في قوله ﴿**هؤلاء بناتي هنَّ أطهرَ لكم**﴾[١]، بنصـــب (أطهر) على الحال وجَعْل (هو) ضميرَ فصل[٢]، أما أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـــــ) فقد عدّ هذه القراءة لحناً بجعل (هو) ضمير فصل[٣]، وظاهر هذا الكلام يوحي بمعرفة أبي عمرو ذلك.

وقـــريب من ذلك قراءة عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـــ) في الآية نفسها إذ قرأ (هنّ أطهرَ) بالنصب على أن يجعل (أطهر) حالاً أما (هن) فذكر فيها الفصل[٤].

ولعـــل اســـتقراء الآراء النحوية لهؤلاء من خلال القراءات القرآنية لعلها الســـبيل الوحيد للحكم على المنصف إذ إن هؤلاء ليس لهم مدونات نحوية يمكن

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٨.
(٢) ينظر: المفصل في تاريخ النحو قبل سيبويه، الحلواني: ١٥٥/١.
(٣) ينظر: المحتسب، ابن جني: ٣٢٥/١، والبحر المحيط، أبو حيان: ١٤٦/٥.
(٤) ينظر المحتسب: ٣٢٥/١، وجامع البيان، الطبري: ٨٥/١٢.

الاستئناس بها كما هو الحال عند سيبويه، إذ الفصل عنده يأتي «إعلاماً بأنه قد فصل الاسم، وأنه فيما ينتظر المحدَّثُ ويتوقعه منه مما لابد له من أن يذكره؛ لأنك إذا ابتدأت الاسم فإنما تبتدئه لما بعده، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكورٌ بعد المبتدأ لابد منه وإلا فسد الكلام ولم يَسُغْ لك، فكأنه ذكر هو ليستدل المحدَّثُ أن ما بعد الاسم ما يخرجه مما وجب عليه وأن ما بعد الاسم ليس منه»[1].

ويوضح كلام سيبويه أنه واقع بين المبتدأ وما بعده وهو الذي عبر عنه سيبويه بالواجب عليك بعد المبتدأ لكي لا يفسد الكلام؛ لأن الخبر هو الجزء الذي يتم به المعنى.

أما من ناحية المصطلح فهو عند البصريين الفصل[2]، لأنه يفصل بين الخبر والنعت، أما عند الكوفيين فهو العماد[3]، وهناك مصطلحات أخرى عند النحويين والبلاغيين جاءت في سياق الحديث عنه.

وظائف الفصل:

لقد حدد عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ) أن صحة الكلام أو فساده يتعلقان بمعاني النحو وأحكامه[4]، وذلك عند حديثه عن نظرية النظم، لذلك فإن القواعد ليست هي الهدف، وإنما الأمر يتعلق بالمعاني والفوائد، وهذه قضية تعرض لها كثيرون، وكانت من نصيب الدرس البلاغي، وهي أقرب ما تكون من الدرس النحوي، وهي مسألة عميقة ليس محل تفصيلها هنا.

إن ضمير الفصل يحقق وظائف كثيرة لفظية ومعنوية بحسب التقسيم التقليدي، ولكن أكثر هذه الفوائد هي معنوية، وأهمها التوكيد؛ إذ ما فتئ

---

(١) الكتاب: ٤٦٢/١.

(٢) ينظر: الإنصاف: المسألة المائة واللباب، العكبري: ٤١٦، والكافية بشرح الرضي: ٢٤/٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ٢٤٥/٢، ٣٥٢، ومجالس ثعلب: ٣٩٥/٢، والأصول في النحو لابن السراج: ١٢٩/٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٥٦.

الـــنحويون يذكرون هذه الفائدة[1]، وهناك فوائد أخرى كالحصر ففي قوله تعالى: **﴿وإنـــا لـــنحن الصـــافون* وإنـــا لنحن المسبحون﴾**[2]، فإن ضمير الفصل نحن هنا «يفيـــد الحصـــر ومعـــناه أنهـــم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم»[3].

إنـــنا إذا استقصـــينا الفوائد الدقيقة لضمير الفصل نجدها كثيرة بثيرة، ولا ســـيما على مستوى التراكيب القرآنية غير الواسعة، إلا أننا من خلال البحث في الـــتراكيب القـــرآنية الواسعة نجد الفصل يحقق وظيفة سياقية مهمة، وأنّ له أثراً بالغاً في السياق القرآني بكل مستوياته.

الوظيفة السياقية للفصل:

الـــرأي الشائع بين أوساط اللغويين فيما يخص نظرية السياق أن فيرث (Firth) هـــو زعيـــم هذا الاتجاه، وهو ما سمي بالمنهج السياقي، وهو أن المعنى لا يمكن فهمه والكشـــف عـــنه إلا مـــن خـــلال تسييق الوحدة اللغوية[4]، والمقصود منه الدور الذي تؤديه هذه الوحدة في نظم الكلام أو تركيبه اللغوي.

والحـــق أن عبدالقاهر في نظرية النظم قد أشار إلى القول بذلك، فقد وكد خـــلو التصـــور بـــــ «أن يتعـــلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو»[5]، ووكد في موضع ثانٍ «أن الالفاظ المفردة... لم توضع لتعرف معانيها

---

(١) ينظر مثلاً: المقتضب: ١٠٤/٤، والكافية بشرح الرضي: ٢٤/١، ومغني اللبيب: ٤٩٦/٢.
(٢) سورة الصافات، الآيات١٦٥- ١٦٦.
(٣) التفسير الكبير: ١٧١/٢٦.
(٤) يـــنظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٦٨-٦٩، والأدوات النحوية: ٥١- ٥٢، ودور الكلمة في اللغة، ستيفان أولمان: ٥٤- ٥٦.
(٥) دلائل الإعجاز: ٢٦٦.

فـــي أنفســـها، ولكـــن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد»[1]، فالمفـــردات المعجميـــة تكتســـب دلالـــتها مـــن خلال انتظام الألفاظ في الجمل والـــتراكيب، وليس بعد هذا دليل على معرفة العرب هذه النظرية، وكان ينقص عبدالقاهر أن يسمي ذلك نظرية السياق، وليست التسمية على الراجح بشيء ذي بـــال؛ إذ إن التســـميات والمصطلحات تتعاور فيما بينها، ومع غيرها من الألفاظ على مر الأزمنة، فليس السياق مصطلحاً ثابتاً فيما يدل عليه، فرب تسمية أخرى تحـــل محلـــه قريباً أو بعد حين، تكون أدل على المضمون مما هي عليه الآن، والعلم جارٍ على سنن التطور.

والـــذي نـــراه مـــن جانب ثان أن ابن جني (٣٩٢هـــ) قد ذكر شيئاً يمس مضـــمون هـــذه القضـــية، إذ يقول: «تقول ضرب يحيى بُشرى.. مما يخفى في الـــلفظ حالـــه أُلْـــزِمَ الكـــلامُ من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب، فإن كانت هناك دلالة أخرى من قِبَلِ المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير نحو: أكل يحيى كمثرى، لك أن تقدم وأن تؤخر كيف شئت»[2].

ففـــي ذلك توكيد أهمية التركيب اللغوي في معرفة الفاعل من المفعول عند خفـــاء الإعـــراب، ومـــثله تعرُّف المعنى من خلال السياق مما يجوز فيه التقديم والـــتأخير في الألفاظ؛ لأن السياق هو الذي يحدِّد المعنى، ولو كان اللفظ لاختل المعنى بالتقديم والتأخير.

إن مـــا نـــريد أن نخـــلص إليه، وما نراه الرأي الحق السليم هو معرفة العرب قضـــية الســـياق ومضـــمونها، وإنه لمن الخطأ والخلل في آن أن يهمل الدارسون هذه الآراء وينســـبون ذلـــك إلى المحدثيـــن من الأجانب أو سواهم، ودليلنا على ذلك آيتان:

---

(١) المصدر نفسه: ٣٥٣

(٢) الخصائص: ١/٣٥.

أولاهمـــا: مـــا ذكرنا من نصوص وآراء –على اقتضابها– تثبت ذلك، والآية الثانية: ما ســـنذكره مـــن احتفال العرب بذلك من خلال قضية الفصل التي هي مدار بحثنا، إذ إن وجـــود الفصل في كثير من الآي إنما هو لتحقيق وظيفة سياقية، تعرَّضَ لقسم منها مَنْ كان له رأي في هذا الموضوع، ولا سيما المفسرون وأصحاب كتب القراءات.

وعـــند بحـــثي في قضية الفصل وعلاقته بالسمة التعبيرية للسياق القرآني، تحقق لي أن قوام الأمر في ذلك يقع في مباحث ثلاثة، تفصيلها على النحو الآتي:

(أ) السياق القرآني العام:

وربمـــا أمكـــن تسميته السياق القرآني البعيد مقابلة مع المبحث الذي يليه؛ السياق القرآني القريب، وإلا فربما لا تبعد الآيات المؤثرة في وجود الفصل عنه كثيراً؛ لذا فإن القول بأنه سياق عام هو الأنسب، من ذلك قوله تعالى: ﴿**أولئكَ هم المؤمـــنون حقـــاً**﴾[1]، جاء بالفصل لتوكيد صفة الإيمان؛ لأن سياق الآيات يدل عـــلى ذلـــك، إذ يقـــول تعـــالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين* إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾[2]، فمعنى قوله (إن كنـــتم مؤمـــنين) إن كنتم كاملي الإيمان، واللام في قوله (إنما المؤمنون) إشارة إليهم أي إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت، والدليل عليه قوله: ﴿**أولئك هـــم المؤمنون حقاً**﴾[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿**فلما أتاها نودي يا موسى* إني أنا**

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنفال، الآيات١-٤.

(٣) الكشـــف: ١٩٥/٢، وذكـــرت الآية نفسها في موضع آخر من السورة هو الآية الرابعة والسبعون، إذْ حكم السياق هناك بما حكم هنا.

ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى* وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى* إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾[1]، جاءت هذه الآيات مصرحة بتوكيد ذات الله جلت قدرته، ويبدو ذلك من تعدد ضمائر المتكلم وتوكيدها بغير مؤكد، وأنه المتفرد بالألوهية، ثم جاء بالفصل في موضعين متقاربين؛ لأن سياق الآيات التي سبقت هذه جاءت في صفات الخالق جل وعز رب العالمين يقول تعالى: ﴿**طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى* تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى* الرحمن على العرش استوى* له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى* وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى* الله لا إلا إلا هو له الأسماء الحسنى﴾**[2]، فقد «أتي بالضميرين توكيداً؛ لأن المنادى الله وأن المراد بالرب المذكور قبله الله لا ما يحتمل لفظ الرب مما سوى الله»[3]، وهذا الكلام على الآيات الأول المشتملة على ضميري الفصل، وهما في الآيتين (إني أنا ربك) و(إنني أنا الله).

ويقول سبحانه: ﴿**إن هذا لهو القصص الحقُّ**﴾[4]، «إن هذا أي ما قص من نبأ عيسى ومريم (لهو القصص الحق) بجملتها خبر إن، أو هو فصل يفيد أن ما ذكره من شأن عيسى ومريم حقّ دون ما ذكروه»[5]، إذ إن سياق الآيات يتحدث عن عيسى ومريم عليها السلام[6]؛ وذلك أن اليهود والنصارى قد خاضوا في أحاديث عنهما ليست صحيحة، فجاء بالفصل ليؤكد أن حديث القرآن الكريم عنهما هو الحديث البين والقصص الحق لا ما يدعون.

---

(١) سورة طه، الآيات:١١-١٤.
(٢) سورة طه، الآيات١-٨.
(٣) الأقصى القريب: ٧١.
(٤) سورة آل عمران، الآية:٦٢.
(٥) أنوار التنزيل: ١٦٣/١.
(٦) تنظر الآيات ٤٢- ٦١ من سورة آل عمران ففيها القصة ومنها يلتمس السياق المشار إليه.

أمـــا قولـــه تعـــالى ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[1]، فإن سياق الآيات يشير إلى ذلك إذ يقول جل ثناؤه: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هـــادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضـــعه يقولـــون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنـــته فـــلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فـــي الدنيا خزي ولهم في الأخرة عذاب عظيم* سماعون للكذب أكّالون للسحت فـــإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمـــت فـــاحكم بيـــنهم بالقسط إن الله يحب المقسطين* وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين**﴾[2].

الســـياق هـــنا فـــي حال الكافرين وصفاتهم، ثم في الحكم بالقسط فمجيء الفصل في الآية إنما هو «تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الإحلال به أشد تحذير؛ حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعـــالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ولا سيما مع مباشرة ما نهوا عنه مـــن تحـــريفه ووضـــع غيـــره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمناً قـــليلاً»[3]، والـــذي يبدو راجحاً أن سياق الحكم بما أنزل الله هو ملاك الأمر في وجـــود الفصل، ومئنة ذلك ذكره في آيتين أخريين بعده بقوله سبحانه: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**وليحكم أهل الأنجيل**

---

(١) سورة المائدة، الآية:٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآيات٤١-٤٣.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٢/٤٧- ٤٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [1].

أما قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾** [2]، فقد جاءت الآية في ثمانية مواضع، لأن سياق ما قبلها في كل مرة يجعلها متمكنة في موضعها لا يلمح فيها أثر التكرار، وهذا أسلوب قرآني فريد، وهو أن تكرَّر ولا يحدث من تكرارها سآمة أو ملال، بل يرى القارئ أنه أمام صورة جديدة، وسبب ذلك المعاني التي تكتسبها الآية المكررة من الآية أو الآيات التي قبلها أي: من السياق، ولعل دليلنا على ذلك- سوى ما نحن فيه الآن- هو قوله تعالى **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** [3]، إذ ذكرت هذه الآية في واحد وثلاثين موضعاً، وفي كل مرة لا يلمح أثر التكرار؛ لأن السياق في كل موضع يسهم في إعطاء معنى جديد للآية من خلال تعلقها بما قبلها، وكذلك الحال في سورة الشعراء، إذ يقول تعالى في الموضع الأول: **﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن مُحدث إلا كانوا عنه معرضين* فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن* أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾** [4]، ثم كرر في موضع ثان تحدث فيه عن موسى (عليه السلام) ونجاته من فرعون، ثم كررها «عقب كل ما يجدر أن يكون عِظة يعتبر بها كتصوير جند إبليس وقد كُبكبوا في جهنم وأخذوا يختصمون فيما بينهم.. وكررها عقب قصة صالح ولوط وشعيب(عليهم السلام)، وخَتْمُ الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن سير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن»[5].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الشعراء، الآيات٨-٩.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٤) سورة الشعراء، الآيات٥-٧.
(٥) أسرار التكرار في لغة القرآن، محمود السيد شيخون: ٥٣.

والتحقيق أن الآية قد كررت بعد كل قصة من قصص الأنبياء: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ثم أصحاب الأيكة وهو قوم شعيب عليه السلام، وعلى ما ذكرنا من الترتيب، وفي كل آية يذكر ما كان من شأن أقوام هؤلاء الأنبياء من تكذيب رسلهم، ثم نزول عذاب الله على هؤلاء القوم وتأييده سبحانه نبيه بالحق والعزة، يقول تعالى: **﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين* إذ قال لهم شعيب ألا تتقون* إني لكم رسول أمين* فاتقوا الله وأطيعون* وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله رب العالمين* أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين* وزنوا بالقسطاس المستقيم* ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين* واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين* قالوا إنما أنت من المسحرين* وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين* فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين* قال ربي أعلم بما تعملون* فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾**[1]، جاء بالفصل المؤكَّد باللام لأن سياق الآية في تكذيب تلك الأقوامِ رُسُلَهم، ثم ما جرى عليهم من العذاب، فإن الله ناصرُ أنبيائه وهو العزيز، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، وأولى الناس بعزته هم رسله الذين يبلغون رسالاته، فتكرار الفصل مع كل قصة أفاد ذلك، وهذا أبلغ دليل على استيلاء الكمال على كلامه سبحانه مكرراً كان- كما يبدو لنا- أو غير مكرر؛ لذلك قال بعد الآية الأخيرة تلك **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾**[2]، وقد صدق وأتى من الحجة والبيان شاهداً على أنه من عنده سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات١٧٦- ١٩١.

(٢) سورة الشعراء: الآية: ١٩٢.

ب- **السياق القرآني القريب:**

إذا نظرنا إلى قوله تعالى: **﴿إن الله هو السميع البصير﴾**[1] وجدنا أن الفصل يؤكد صفتين من صفات الله تعالى، أو يحقق اختصاصه سبحانه على جهة الكمال، وهو سميع بصير في كل حال فلماذا جاء بالفصل هنا؟ الجواب عن ذلك في العودة قليلاً إلى الآيات السابقة التي تمثل السياق القريب، فقد ألفينا الآية التي تسبق آية الفصل تشمل شيئاً قريباً من ذلك قد أثر في الفائدة التي يعطيها وجود الفصل كالتوكيد أو الاختصاص أو سواهما، إذ يقول جلت صفاته: **﴿يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**[2]، إذ الآية الأولى تقرير للثانية «ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله وأنها لا تسمع ولا تبصر»[3]، فالسياق القريب من الآية التي ورد فيها الفصل، هذا السياق الذي يفيد أن علمه سبحانه يصل إلى خائنة الأعين وما تخفي الصدور، قد أثر في وجود الفصل لمشاكلة الآية الثانية الأولى أولاً، ومن ثم أتى بالفصل توكيداً لهذه المناسبة والمشاكلة بينهما، ولولا ذلك فلا مزية لوجود الفصل مقابلة مع قوله تعالى: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**[4]، لأن السياق القريب من هذه الآية في غير صفاته تعالى من السمع والبصر كيما يأتي بالفصل، وإنما في غير ذلك تماماً، يقول تعالى: **﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب* فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو**

---

(١) سورة المؤمن، الآية: ٢٠.

(٢) سورة المؤمن، الآية: ١٩.

(٣) الكشاف: ١٥٩/٤، ومدارك التنزيل (مجمع التفاسير): ٣٤٦/٥.

(٤) سورة الشورى، الآية:١١.

السـميع البصير﴾[1]، وما دام الحديث عن سورة الشورى فمنها نقتبس شاهداً آخر كـان للسياق القرآني القريب أثر في وجود الفصل، إذ يقول سبحانه: **﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته و الظالمون ما لهم من ولـيّ ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهـو على كل شيء قدير﴾**[2]، أسهم نفي الولاية عن الظالمين، ثم اتخاذ هؤلاء الأولياء من دون الله وذلك بتصديره (أم) المعادلة التي تفيد الإضراب هاهنا أي: (بـل اتخذوا من دونه أولياء) لعدم وجود معادل لها، والآيتان نلمح فيهما اندهاشاً يعـبر عن الإنكار، فقد انتقل من تقرير حقيقة أن الظالمين لا ولي لهم ولا نصير إلى الإضـراب إلى اتخاذ هؤلاء أولياء من دون الله، فلزم لكل ذلك أن يقرر أن الولاية لله تعالى، ولما لم تكن هذا الولاية مما انفردت به هذه الآية كقوله تعالى: **﴿إنّ أولى الـناس بإبـراهيم لـلذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾**[3]، جاء بالفصل في الآية الأولى ليميزها من غيرها؛ لأن ما دل عليه السـياق القريب جعل وجود الفصل مما لا محيد عنه، وليؤكد اختصاصه تعالى بالولاية الحقة، وأنه لا مثابة إلا إليه.

ويقـول تعالى: **﴿إنك أنت علام الغيوب﴾**[4]: السياق القريب أثر في وجود الفصـل في هذه الآية المؤكد صفة علمه تعالى الغيبيات وأنه المختص بها، فقبله قولـه تعـالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين مـن دون الله قـال سـبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد**

(١) سورة الشورى، الآيات١٠-١١.
(٢) سورة الشورى، الآيات٨-٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾[1]، الآية المشتملة على الفصل قد وكدت الجملتين اللتين سبقتا جملتي العلم[2]، وأن هاتيك الجملتين قريبتان من جملة الفصل، وسياقهما في العلم الذي وكده الفصل وخصصه بعلام الغيوب في نهاية الآية، ومثل قوله تعالى: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾**[3]، الفصل جاء ليؤكد سياق الآية الدالة على كمال الرحمة والمغفرة منه تعالى[4]، وهو سياق قريب.

وقرئ قوله تعالى: **﴿أإنك لأنت يوسف﴾**[5]،على الاستفهام والاستخبار[6]، فحجة من قرأ «على الخبر أنهم لما عرفوا يوسف، وتيقنوا أنه هو أتوا بـ(إن) التي لتأكيد ما بعدها، وا ستغنوا عن الاستخبار لأنه شيء قد ثبت عندهم.. وحجة من استفهم أنه أتى بلفظ الاستفهام الذي معناه الإلزام والإثبات، لم يستخبروا عن أمر جهلوه، إنما أتوا بلفظ يحققون به ما صح عندهم من أنه يوسف»[7]، يحقق ذلك- في الأمرين كليهما خبراً كان أم استفهاماً- سياق الآيات القريب من هذه الآية، فبعد أن دعاهم أبوهم لأن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه قال: **﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين* قال هل علمتم ما فعلتم**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٢) ينظر: التفسير الكبير: ١٤٣/١٢.
(٣) سورة الزمر، الآية:٥٣.
(٤) ينظر: التفسير الكبير: ٥؟٢٧.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٦) ينظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه: ١٩٨. والتيسير في القراءات السبع، الداني: ١٣٠.
(٧) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي القيسي: ١٤/٢.

بيوسف وأخيه إذ أنت جاهلون﴾[1]، السياق كله يجري في إخفاء شخص النبي يوسف (عليه السلام)، حتى وصل إلى ذروة ذلك بأن وسط الفصل بين الكاف ويوسف وأدخل عليه اللام، فمن قرأ على الخبر كان يريد إزالة الشكوك في أنه يوسف وقد دل السياق القريب عليه، ومن قرأ على الاستفهام كان مجارياً لسياق تلك الشكوك، لكنه كان مع الإثبات أنه يوسف أميل، وآية ذلك أنه وكده بـ(إن) المحققة وباللام الداخلة على الفصل؛ إذ التوكيد لا يشاكل الاستفهام، لكنهم-أي إخوته- كانوا يريدون تحقيق ما ثبت في نفوسهم وإنْ جاءوا به على غير المعهود، وأمثال ذلك في القراءات القرآنية كثير[2].

ج- **السياق التقابلي:**

من خلال تتبعي قضية تأثير السياق في وجود الفصل في الأسلوب القرآني ألفيت آيات متشابهة متوائمة مواءمة ليس فيها لبس في أن نظم الآيتين وغرضهما واحد، إلا في وجود الفصل في إحداهما، وخلو الأخرى منه، فما الداعي لوجوده في الأولى وعدمه في الثانية؟ الجواب عن ذلك السياق في الأولى مقابلة معه في الثانية، ويظهر ذلك جلياً بمقابلة سياق الآيات التي تشمل الفصل مع الآيات التي لا تحتويه، يقول تعالى: ﴿**إن الله ربي وربكم فاعبدوه**﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿**وإن الله ربي وربكم فاعبدوه**﴾[4]، ويقول في آية ثالثة: ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه**﴾[5]، يلاحظ أن الآيتين الأوليين قد خلتا من الفصل، فيما

(١) سورة يوسف، الآيات٨٨-٨٩.
(٢) ينظر مثلاً : سورة البقرة، الآية: ٣٧. سورة المؤمنون، الآية: ١١١. سورة الطور، الآية: ٢٨ وغيرها.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٥١.
(٤) سورة مريم، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٦٤.

اشـــتملت الثالثة عليه، لأن آية الزخرف قد قيلت في سياق عيسى (عليه السلام) واتخـــاذه إلهـــاً من دون الله، فناسب ذلك توكيد الربوبية وإثباتها له تعالى ونفي الأبوة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[1].

أمـــا قولـــه تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هـــو العـــلي الكـــبير﴾**[2]، في مقابلة قوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن مـــا يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾**[3]، فيظهر تعاقب الآيتين تمامـــاً إلا فـــي وجود الفصل عند قوله (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) في الآيـــة الأولى، وخلوها منه في الآية الثانية، والسبب هو سياق الآية الأولى قبالة سياق الآية الثانية، فالسياق الأول واقع في الصراع مع أهل الباطل ذلك الصراع العـــنيف مـــع الذين يعاجزون ويعاندون الحق[4]، إذ يقول الحق تعالى: **﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾**[5]، ثم يقول: **﴿ولا يزال الذين كفـــروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾**[6]، وليـــس ذلك في سورة لقمان، إذ الصراع هناك أقل حدة، بل هو جدال بغير علم، يقـــول تعـــالى: **﴿ومـــن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب مـــنير* وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لـــو كـــان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾**[7]، فالسياق أحياناً يحدد وجود

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ١/١٦٤، والتعبير القرآني. فاضل السامرائي: ١٣٤- ١٣٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٤) ينظر معاني النحو: ١/٥٧- ٥٨، والتعبير القرآني: ١٣١- ١٣٢.

(٥) سورة الحج، الآية:٥١.

(٦) سورة الحج، الآية: ٥٥.

(٧) سورة لقمان، الآيات٢٠-٢١.

الفصل قبالة السياق الآخر، وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة[1].

وبقيت مسألة واحدة لابد من ذكرها لتكون قضية السياق موفورة الجوانب، ومـــلخص هذه المسألة أن كل ما صح أن ينتظم تحت السياق التقابلي- المشتمل عـــلى الفصـــل بديهـــة- صح أن ينتظم تحت قضية السياق جملة وتفاريق على اختلاف تفريعات مباحثها سواء أكان سياقاً عاماً أم قريباً أم تقابلياً.

(١) ينظر مثلاً: سورة البقرة، الآية: ١٢٠. وسورة الأنعام، الآية:٧١ . مقابلة مع سورة آل عمران، الآية: ٧٣. وسورة فصلت، الآية:٣٦، مقابلة مع سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠. وســـورة التوبة، الآية:٧٢. مقابلة مع سورة التوبة، الآية:١٠٠. وغيرها فسياق الآيات الأول هو الذي حدد وجود الفصل مقابلة مع سياق الآيات الأخر.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الأدوات النحوية وتعدد معانيها الوظيفية- دراسة تحليلية تطبيقية، الدكتور أبو السعود حسنين الشاذلي، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر ١٩٨٩م.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي (ت٩٨٢هـ) دار الفكر.

٤- أسرار التكرار في لغة القرآن، الدكتور محمود السيد شيخون، الطبعة الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة الحديثة للطباعة، مصر، ١٩٨٣م.

٥- الأصول في النحو، أبو بكر بن السراج (ت٣١٦هـ) تحقيق الدكتور عبدالحسين الفتلي، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، ١٩٧٣م.

٦- الأقصى القريب في علم البيان، زين الدين التنوخي (ق٧ للهجرة) الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٧هـ.

٧- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٥م.

٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي البيضاوي (ت٧٩١هـ) الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.

٩- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض.

١٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) تحقيق محمد علي النجار، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

١١- التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
١٢- التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.
١٣- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) تصحيح أوتو برتزل، الطبعة الثالثة، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري (ت٣١٠هـ) دار الفكر، بيروت ١٩٨٨م.
١٥- الحجة في القراءات السبعة، ابن خالويه (ت٣٧٠هـ) تحقيق وشرح الدكتور عبدالعال سالم مكرم، الطبعة الثانية، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ١٩٧٧م.
١٦- الخصائص، ابن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.
١٧- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ) شركة الطباعة الفنية المحدودة، نشر مكتبة القاهرة، مصر ١٩٦١م.
١٨- دور الكلمة في اللغة، ستيفان أولمان، ترجمة كمال محمد بشر، الطبعة الثالثة، المطبعة العثمانية، نشر مكتبة الشباب، مصر ١٩٧٢م.
١٩- علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى، مكتبة دارالعروبة، الكويت، ١٩٨٢م.
٢٠- الكافية في النحو، ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) بشرح الرضي الاسترابادي (ت٦٨٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١- الكتاب، سيبويه (ت١٨٠هـ) الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٦٧م.
٢٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٤٧م.

٢٣- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي القيسي (ت٤٣٧هـ) تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦م.
٢٤- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) دراسة وتحقيق الدكتور خليل بنيان الحسون، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى آداب القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٥- مجالس ثعلب، أبو العباس ثعلب (ت٢٩١هـ) شرح وتحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.
٢٦- المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق الدكتور علي النجدي ناصف والدكتور عبدالحليم النجار والدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ.
٢٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (ت:٧٠١هـ) (ضمن مجمع التفاسير) الطبعة الثانية، دار الدعوة، استانبول، تركيا، ١٩٨٤م.
٢٨- معاني القرآن، الفراء (ت٢٠٧هـ) تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٩- معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، مطبعة التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م.
٣٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.
٣١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة.
٣٢- المفصل في تاريخ النحو، الجزء الأول قبل سيبويه، الدكتور محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة.
٣٣- المقتضب، المبرد (ت٢٨٥هـ) تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.